الإيلاف والائتلاف والمؤتلف الإنساني
الأسرار اللغوية والرؤية القرآنية والأبعاد الحضارية

فيصل الحفيان ■

مقدمة

الإيلاف على وزن إفعال: مصدر آلف يُؤلف، مثل أَكْرَمَ يُكْرِمُ إكراماً، الهمزة الأولى زائدة، والياء مسهَّلة من الهمزة الأصلية الساكنة المكسور ما قبلها.

والإلاف على وزن (فِعال) مصدر آلَفَ يُؤَالِفُ، مثل عَانَقَ يُعانِقُ، الهمزة الأولى فيه أصلية، بعدها عين الكلمة، فألف المصدر، فلام الكلمة. ولها نظيرٌ (مصدرٌ) قياسيٌّ آخر، هو: مُؤالَفَةٌ، مثل مُعَانَقَة.

أو هو (الإلاف) مصدر (أَلِف) الثلاثي من باب (علم يعلَمُ) يُقال: ألف يألَف إلفاً وإلافاً، وأيضاً أَلفاً وأَلَفاناً[1].

واللفظان (إيلاف، وإلاف) قُرئ بهما[2].

والائتلاف: مصدر (ائتلف) ولم يأت في القرآن الكريم؛ لا اللفظ، ولا المشتقات منه، على أن لصيغة (افتعل) دلالتين:

1 ـ المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية: مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1970، 466/1.

2 ـ قرأ ابن عامر وحده (إلاف) وذلك في سورة (قريش).

■ مدير معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

الأولى: الاجتهاد والمبالغة في الفعل.

والآخرة: الاتِّخاذ؛ اتخاذ الشيء.

وبهاتين الدلالتين يمكن أن نفسِّر الائتلاف في العنوان بأنه الاجتهاد في القيام بالأُلفة، أو اعتماد الأُلفة وتبنِّيها.

أما المُؤْتَلَف فهو اسم مفعول من (ائتلف) أي الشيء الذي يُؤْتَلَف به، أو يُجْتَمع حوله، ويُراد به المشترك. وقد نُعت بـ(الإنساني) ربما للتوضيح والبيان، بَيْدَ أنَّ المادة (الائتلاف) وحدها ليست بحاجة لتوضيح ولا لبيان؛ وذلك لما تختزنه في ذاتها من معايير، يغلب عليها اتِّصالها بالإنسان وتمحورها حوله؛ فهي أدلُّ وأبْلَغُ في الدلالة من لفظة (المشترك) الذائعة اليوم.

1 ـ الأبعاد اللغوية

الجذر (أَلِف) وما اشتُقَّ منه ساميٌّ، يدور حول معنيَيْن:

- الاعتياد.
- والدرس والتعلُّم.

هو كذلك في العبرية والآرامية والسريانية[3].

المعنى الأول (الاعتياد) موجودٌ ـ أيضاً ـ في العربية، وهو المعنى القريب والذَّائع. والاعتياد معروف لا يحتاج إلى تفسير، لكن من المهم أن نشير إلى أنَّه قد خرج أحياناً من معاني العَود والتكرار إلى معانٍ خُلُقية، من مثل (العائدة) التي تُطْلَق على (المعروف والصلة) و(العيادة) التي هي (الزيارة) أو زيارة المريض خاصة[4].

3 ـ مجمع اللغة العربية، المعجم الكبير ـ ألف 415/1.

4 ـ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم. معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط جديدة، 1424هـ/2003م، 231/2، 232.

1/1: من الضمّ إلى الالتئام

جعل ابن فارس المعنى الأصل هو (الانضمام) أو (الضَّمّ)، وقد عبَّر عن ذلك بالقول: «الهمزة واللام والفاء: أصلٌ واحد، يدلُّ على انضمام الشيء إلى الشيء، والأشياء الكثيرة أيضاً»[5].

والضَّمُّ فيه معنيان لا ندري إن كان ابن فارس قد لَحَظَهما عندما فَسَّر به (الإلف)، وهما:

- الجمع، لكنَّ متعلَّق الجمع هو (الأشياء الكثيرة) وبذلك يفترق الضم عن الجمع.
- واللَّصق أو اللَّزق. وهذا - أيضاً - ليس في الجمع[6].

المُؤْتَلَف هو اسم مفعول من (ائتلف) أي الشيء الذي يُؤْتَلَف به، أو يُجْتَمع حوله، ويُراد به المشترك. وقد نُعت بـ(الإنساني) ربما للتوضيح والبيان، بَيْدَ أنَّ المادة (الائتلاف) وحدها ليست بحاجة لتوضيح ولا لبيان؛ وذلك لما تختزنه في ذاتها من معايير، يغلب عليها اتِّصالها بالإنسان وتمحورها حوله.

ولو أردنا أن نفاضل بين المعنَيين - معنى الاعتياد، ومعنى الضمّ - لنرى أيَّهما أسبق، أو بعبارةٍ ابن فارس: أيهما الأصل، لربَّما مِلْنا إلى ما قاله الأخير؛ من باب أنَّ المعاني الحِسِّية أسبقُ من المعاني العقلية، على ما هو مقرَّر عند علماء اللغات. فمعنى الانضمام أو الضمّ هو مجرد الاجتماع أو الجمع بين الأشياء، على حين أنّ معنى الإلف هو معنًى غير حِسِّيٍّ، وهو بعيد عن المعنى الأول؛ إذ الأشياء التي تجتمع أو تُجْمعَ يألف بعضُها بعضاً، أو إنها إنما اجتمعت أو جُمِعت؛ لأنَّ بينها ما يدعو إلى الاجتماع أو الجمع.

والحقيقة أنَّ بين المعنيين خَيْطاً رقيقاً لا يكاد يستبين، وكثيراً ما ينقطع، فيتداخل المعنيان، ليصبحا واحداً.

5 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة. دار الجبل، بيروت، 1420هـ/1999م،

6 - أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة 158، تحقيق أحمد سليم الحمصي، جروس برس، طرابلس لبنان، ط1، 1415هـ/1994م، ص 158، 159.

يمكن ـ إذن ـ أنْ ننظر إلى الضمِّ أو الجمع على أنه الإلْف الحسّي، أو هو أقرب إليه، وأن ننظر إلى الاعتياد على أنه الإلف المعنوي، أو هو أقرب إليه.

وإذا كان بالإمكان أن ندخل في مغامرة لغوية محسوبة ـ إلى حَدٍّ ما ـ ونحن نعرِض لتأثيل (الإلف)؛ فإنَّ الدخول في مغامرة مماثلة من جهة البحث عن أول من نطق باللفظ بالمعنى الثاني (الاعتياد) يبدو أمراً متعذِّراً أو مستحيلاً؛ ذلك أنَّ (الترسيس) مع لغة ضاربة في جذور التاريخ ـ مثل العربية ـ ومع لفظٍ قديمٍ جدّاً، تشترك فيه غيرُ لغة سامية هو ـ بالتأكيد ـ ضربٌ في عماية ليس إلَّا.

وإذا كان ابن فارس قد جعل المعنى الأصل هو (الانضمام) مجرَّداً؛ فإن الراغب الأصفهاني لمح خيطاً دلاليّاً لم يلتفت إليه ابن فارس، وهو يأخذنا ـ بحقٍّ ـ إلى الأبعاد الحضارية، وذلك هو (الالتئام) قال: الإلف: اجتماع مع التئام[7]. الاجتماع هو الانضمام. أما الالتئام فهو أمْرٌ آخر، وإلا لَما جمع بينهما، فما هو معنى الالتئام؟

لن نجد في مفردات الراغب مادة (لأم)؛ لأنَّها ليست من الألفاظ القرآنية، وكنَّا نود أن نراها عنده لننظر فيما يقول.

وكان لا بدَّ أن نقصد المعجمات اللغوية غير المختصة، وقد رأينا عند ابن سِيده ما فيه غُنْية؛ فقد ذكر من معاني (لأم): الإصلاح، والموافقة، والمشابهة والمماثلة. وهي معانٍ لو ربطنا بينها وبين (الاجتماع)؛ لأمكن أن نقول: إن الخيط الدلالي الذي أضافه الراغب يجعل (الاجتماع) الذي فسَّر به (الإلف) اجتماعاً منعوتاً أو مقترناً بالصلاح أو الإصلاح، وبالموافقة أو التوافُق. إنَّ خيط الإصلاح داخلٌ في البنية المفهومية للالتئام، كأن الالتئام إنما يكون بعد تفرُّق واختلاف، لذلك قال ابن سِيده، وهو يتكلم في فرش

7 ـ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1381هـ/1961م، (مادة لأم).

مادة (لأم): «وقد تلاءم القومُ والْتأموا: اجتمعوا واتفقوا. ولأَمَ الشيءَ لأْمًا، ولاءَمَهُ، وأَلْأَمَهُ: أَصْلَحَهُ، فالتأم»[8].

ولربَّما فهمنا إذا ما نظرنا إلى معنى المشابهة أو المماثلة (الاجتماعَ) على أنه ليس اجتماعاً مجرداً، بل هو اجتماع من نــوعٍ خاصٍ؛ اجتماعٌ بين متماثلين أو متشابهين؛ اجتماع ـ مع شيء من التجاوز ـ يسعى إلى أن يجعل من أفراده على سَوِيَّة واحدة.

لقد توقَّفنا عند هذه المعاني؛ لأنّنا لمحنا فيها أنها تتنزَّل على الإنسان في علاقته مع أخيه الإنسان، أيّاً كان جنسُه أو لونه، أو انتماؤه.

يتَّسع المشهد اللغوي لـ(ألف) في العقل العربي ليتجاوز معاني الانضمام والاجتماع والاعتياد والالتئام إلى معانٍ أخرى، تقرب حيناً؛ وتبعد حيناً، لكنَّها حتى في حال اقترابها مختلفة، أو لِنقُلْ: إنها تُضيف جديداً.

2/1: المشهد اللغوي

ويتَّسع المشــهد اللغوي لـ(ألف) في العقل العربــي ليتجاوز معانــي الانضمــام والاجتماع والاعتياد والالتئام إلى معانٍ أخرى، تقرب حيناً؛ وتبعــد حينــاً، لكنَّها حتى فــي حــال اقترابها مختلفة، أو لِنقُلْ: إنها تُضيف جديداً.

1/2/1: الوصل

فُسِّــر (الإلف) بالوصل، فقد قيل: ألَّف الشــيء: وصل بعضه ببعض. والوصل ـ كما قال ابن سِيده: خلافُ الفصل[9].

وإذا ما وضعنا (الإلف) في مقابل (الفصــل) والفصل قطعٌ أو قطيعة؛ فإن لنا أن ننزِّل هذا المعنى على العلاقات الإنسانية، فيكون في (الإلف) وَصْلٌ واتِّصال بين الناس.

8 ـ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 75/12.

9 ـ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 247/8.

2/2/1: الاستمالة

أشارت إلى هذا المعنى المعجمات في نحو: ألَّف فلاناً، أي: استماله. وهو معنًى يحيل على المبادرة من طرفٍ نحو آخر بقصد التقرُّب منه والتودُّد إليه.

3/2/1: المداراة والمقاربة

هذان المعنيان يندرجان تحت الاستمالة، أو لنقُلْ: إنهما يُوصلان إليها، فقد قيل: تألَّف فلاناً، أي داراه وقاربه حتى يستميله إليه، كما قيل: استألف فلاناً، أي داراه حتى استماله.

4/2/1: اللزوم

يذهب الإلف في اتجاه معنى (اللزوم) يقال: ألفتُ موضع كذا، إذا لزمتَه، وآلفنيه اللّهُ، كما تقول: لزمت موضع كذا، وألزَمنيه اللّه[10].

ولا شكَّ أن اللزوم أو الملازمة بين أمرين يُحيل على مدى التقارب بينهما حتى إنهما يتلازمان، أي لا يغادر أحدُهما الآخر.

5/2/1: الاستجارة والإجارة

هذا معنًى إنسانيٌّ خالص؛ ذلك أنَّه مرتبطٌ بطلب الإجارة؛ أي الحماية، أو بمنحها من إنسان لغيره، يقال: آلف فلاناً، أي: أَجَارَهُ، كما يقال: «ألَّف القوم إلى كذا، وتألَّفوا: استجاروا»[11].

والإجارة مأخوذة أصلاً من الجَوْر؛ أي من الظلم؛ نقيضِ العدل، بَيْدَ أنّ الهمزة فيه هي همزة الإزالة، كأنَّ الإجارة هي إزالة الظلم.

ولعل من الضروري هنا الإشارة إلى أنَّ مادة (جور) هذه، منها: الجار والجيران، وما يُشيران إليه من مجاورة ومساكنة. ولعل هذا المعنى أو هذين

10 ـ ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ص 415.

11 ـ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 68/12.

المعنيَيْن إنمـــا خرجا من رحم أنَّ الجار يُجير جاره ويقف معه في شِـدَّته، ويزيل عنه الظلم الذي قد يقع عليه.

إن معاني الإجـــارة والمجاورة جميعـــاً تصبُّ في تكثيـــف حمولة مادة (الإلف) وما يُشْتَقُّ منها.

6/2/1: الأمان والعهد

استُخدم الإلف والإلاف بمعنى الأمان والعهد، وهو استخدامٌ قديم، حتى إن شاعرهم قال:

زعمتـــم أن إخوتكـــم قريشُ لـهـم إلْـفٌ وليس لـكـم إلافُ

أي: لهم أمان وعهد، وليس لكم أمان وعهد. وفُسِّر (إلاف اللّه) بمعنى: أمان اللّه وعهده.

وهذا معنًى سياســيٌّ، أو سياسي / اجتماعي، يتجلَّى فيما يســمى اليــوم بـ(المعاهدات) التي تربط بين دولة ودولة، أو بين الدول.

لعل من الضروري هنا الإشارة إلى أنَّ مادة (جور) هذه، منها: الجار والجيران، وما يُشيران إليه من مجاورة ومساكنة. ولعل هذا المعنى أو هذين المعنيَيْن إنما خرجا من رحم أنَّ الجار يُجير جاره ويقف معه في شِدَّته.

7/2/1: الحب

بهذا المعنى الذي عُدَّ ضمن معاني (الإلف) نصل إلى غاية رفيعة؛ فالحب معنىً إيجابيٌّ، بل بالغ الإيجابية؛ إذ إنه يتجاوز المعاني السابقة:

الاعتياد بحمولته الخلقية التي تقف ـ ربمـــا ـ عند حَدِّ التفضل بالصلة والعطية، وعند القيام بالواجب ـ ربما ـ بعيادة المريض.

والانضمام والجمع، بما فيهما من احتمال الحيدة الخلقية، وشـــمولهما الأشياء غير العاقلة أو الجامدة.

والالتئام لا يبعد كثيراً عما سبقه، وإنْ كان يزيد عليها ـ ربما ـ بمعنى الإصلاح الذي يمكن صرفه أو توجيهه إلى الإنسان، على أنه يظلُّ مستبطناً الجوانب السلبية التي تُخفي وراءها التفرُّق والاختلاف، كما ألمحنا.

والوصل كسابقه يختزن في بنيته الدلالية القطع أو القطيعة، فعلى الرغم من كونه خروجاً منها، يظل ذا تعلُّق بها، فهو إنما بُني على أنقاضها، ولا يمكن له أنْ يبرأ، أو يتخلَّص منها تخلُّصاً كاملاً.

والاستمالة والمداراة والمقاربة كلها معانٍ إيجابية؛ لكنها تبقى مرتهنة لجهتين: جهة كونها تشير إلى مبادرات قد تكون محدودة، وجهة كونها قد لا تخلو من أغراض ربما تجرحها، أو تُقَلِّل من قيمتها الإنسانية.

والإجارة ـ بوصفها فعلاً ـ أعلى مما سبقها؛ ذلك أنَّ فيها حمايةً للمستجير وإنقاذاً له؛ لكن سقفها يظلُّ منخفضاً، إذا ما جرت مقايستها إلى اللزوم.

إنَّ اللزوم يرتقي بالعلاقة (الإنسانية) في حال تنزيله عليها إلى ما هو أعلى من مجرد الحضور في موقف قد ينقضي، وقد يكون له مدًى زمني، بعده يصبح كأنْ لم يكن.

لكن اللزوم ـ بدوره ـ لا يبلغ مكانة الحبّ، بمعناه الذي آل إليه، والذي نستخدمه فيه قروناً طويلة، وهو: مقابل الكره.

لقد تعمَّق معنى الحبّ حتى أصبح على مراتبَ كثيرةٍ، أولها الهوى، وأعلاها الهيام، وبينهما العشق الذي هو فرط الحبّ.

وما يهمُّنا في هذا السياق ـ سياق ما يتَّصل بالإلف بمعنى الحبّ ـ أنه يكون عاطفة فاعلة، كما هو حال الكره، وإن اختلف الاتجاه، ونقصد بـ(فاعلة) أنها تجاوز صاحبها إلى غيره.

إن فِعْل الحب بطبيعته هو فعلُ نَفْع؛ أي أنه يَتقَصَّد نَفْع الآخر، ويعمل لتحقيق الخير له، ويحاول الوصول إليه بما يريد، على النقيض تماماً من الكره.

ولأن الحبّ داخلٌ في نسيجه النفع، فرَّقوا بينه وبين العشق، بأنَّه مجرَّدٌ عن الشهوة أو اللَّذَّة، على حين العشق مقرونٌ بها، مخالط لها.

إنَّ الراغب الأصفهاني ينظر إلى العشق نظرة أخرى، فيجعله نوعين: عشق لذَّة، وهو مذموم. وعشق فضيلة، وهو محمود؛ لكنَّه يجرِّده من النفع؛ ذلك أنَّ اللَّذة والفضيلة مقصودتان لِذاتيهما فيه، على خلاف الحبّ الذي هو أوسع دائرةً، فهو يكون عشقاً بنوعَيْه، ويكون حبّاً يثمر نفعاً يتعدَّى قيمتي اللَّذة والفضيلة في ذاتيهما إلى المحبوب نفسه[12].

إن ربط الإلف بالحبِّ يسمو به سُمُوّاً. ومن يتتبَّع معاني الحب في القرآن الكريم يدرك قيمة هذا الخلق العالي، حتى من الناحية الدينية، فهو يأتي في سياقات تجعل منه في مقابل الرِّدَّة أو الارتداد؛ أي إنه يوازي الإيمان نفسه، كما تُحمِّله معنى الطاعة؛ طاعةِ اللّه تعالى؛ ذلك أنَّ الطاعة من لوازمه. ويربطه برضا اللّه وإنعامه، وليس بعدهما مطلب، كما يربطه برحمته وإكرامه.

إنَّ الراغب الأصفهاني ينظر إلى العشق نظرة أخرى، فيجعله نوعين: عشق لذَّة، وهو مذموم. وعشق فضيلة، وهو محمود؛ لكنَّه يجرِّده من النفع؛ ذلك أنَّ اللَّذة والفضيلة مقصودتان لِذاتيهما فيه، على خلاف الحبّ الذي هو أوسع دائرةً.

ولربما جُعل بمعنى الإيثار والتفضيل عندما تكون هناك مفاضلةٌ بين أمْرَيْن[13].

وإذا لُمح ذلك كلُّه في (الإلف)؛ فإن الحديث عن هذا الخُلق النظري والعملي يبلغ الغاية في ضوء كل من الاستعمال اللغويِّ والرؤية القرآنية.

2 ـ الرؤية القرآنية

استخدم القرآن الكريم غير الإيلاف والإلاف مجموعة من مشتقات المادة:

ـ (ألَّف) فعلاً ماضياً: مرة في (آل عمران 103، وثلاث مرات في الأنفال 63.

12 ـ الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1400هـ/1980م، ص 256.

13 ـ فيصل الحفيان، معجم الأخلاق، مؤسسة الكويت للتقدّم العلمي، الكويت، ط1، 1440هـ/2019م، ص 256 ـ 262 (مادة حب).

- (يؤلِّف) فعلاً مضارعاً: مرة واحدة (النور 43).
- (المؤلَّفة) اسم مفعول: مرة واحدة (التوبة 60).

بالإضافة إلى (ألف) و(ألفين) و(آلاف) و(ألوف) أرقاماً[14]. وليس الغرض متعلِّقاً بها.

1/2: (الإيلاف) الأول

أول إيلاف حاضر في الوعي العربي الإسلامي هو ذاك الذي ذكرته سورة قريش (مكية عند الجمهور)؛ السورة رقم 107 في المصحف. وقد تكرر فيها لفظ (الإيلاف) مرتين: مرة في مطلع السورة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١﴾، ومرة في الآية الثانية ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾.

يبدو هذا (الإيلاف) مستغرباً من الناحية اللغوية؛ ذلك أن السورة بُدئت به مجروراً بحرف الجرّ ﴿لِإِيلَٰفِ﴾، والجار والمجرور ـ بحسب قواعد اللغة ـ محتاجان إلى متعلَّق، فأين هذا المتعلَّق؟

حكى الطبري إجماع جميع المسلمين على أنَّ (قريش) سورة مستقلَّة، وأن (الإيلاف) فيها متعلِّق بالفعل في الآية التالية (الثالثة): ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣﴾[15]؛ لكنَّ هناك محذوراً لغويّاً هو حيلولة الفاء. وقد خرجوا من ذلك بأنها (الفاء) زائدة. وقيل: هو متعلَّق بفعل محذوف؛ هو: اعجب، أو اعجبوا.

وثَمَّ من رأى أن سورة (قريش) تتمة لسورة الفيل (مكية أيضاً) التي سبقتها (السورة 105)، وأنهما سورة واحدة.

وعليه فإن (الإيلاف) متعلِّق بآخر آية من سورة الفيل ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾.

14 ـ محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، 1407هـ/1986م، (ألف).

15 ـ الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، 12/701، 702.

1/1/2: (إيلاف) الأُلفة والتأليف

وَجَّه بعض المفسرين معنى (الإيلاف) في السورة إلى قريش نفسِها، وحمله على معنى (الأُلفة) كأن الله تعالى يمتنُّ عليهم بأنه ألَّف قلوبهم ووفَّق بينهم وجمعهم، ويستدعي هذا المعنى ما جاء في آية أخرى ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: 103]، وفي آية ثالثة ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: 63]، على أن المراد في هاتين الآيتين الأخيرتين هم أصحاب النبي ﷺ الذين آمنوا به واتبعوه.

حكى الطبري إجماع جميع المسلمين على أنَّ (قريش) سورة مستقلَّة، وأن (الإيلاف) فيها متعلِّق بالفعل في الآية التالية (الثالثة): ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾؛ لكنَّ هناك محذوراً لغويّاً هو حيلولة الفاء. وقد خرجوا من ذلك بأنها (الفاء) زائدة.

ولا شكَّ في أن هذا الإيلاف أو التأليف للقلوب نعمة من الله تعالى على قريش، لذلك أُمروا بعبادة الله تعالى، المعنى: فلتعبد قريش ربَّ هذا البيت لإيلافها؛ أي لتجعل عبادتها شكراً لنعمة الله واعترافاً بها، كأنه قيل: إن لم تعبده لسائر نعمه، فلتعبده لنعمة الإيلاف الظاهرة.

ولربما كان المعنى مقطوعاً عن التعلق، تعلُّق الإيلاف بـ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ ﴾ والمتعلَّق هو الفعل (اعجبوا)، والمعنى: اعجبوا لإيلاف قريش التي تعبد الأصنام، وتتنكَّر لله الذي ألَّف بينها؛ ونظَم أسباب عيشها.

2/1/2: (إيلاف) البقاء

أما إذا ربطنا الإيلاف بالسورة السابقة؛ فإن المعنى ربما يتوجه إلى البقاء؛ بقاء قريش واستمرارها؛ أي: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ لإلف قريش؛ أي: أهلكَ الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفت من رحلتي الشتاء والصيف.

3/1/2: (إيلاف) النعمة

ينصرف الإيلاف إلى معنى النعمة إذا ما جعلنا اللام في ﴿ لِإِيلَٰفِ ﴾ في معنى (إلى)، التقدير: فعلنا جميع ما فعلنا من إحباط كيد الأحباش،

وإرســال الطير الأبابيل التي حملت الحجارة المهلكة التي جعلتهم كعصفٍ مأكول، وفي ذلك نعمة عظيمة، إضافة إلى (الإيلاف) الذي هو نعمة أخرى، كأنه سبحانه يعدِّد نعمه على قريش.

4/1/2: (إيلاف) الأمن

يمكــن أن يكون (الإيلاف) بمعنــى الأمن، فإن اللّٰه تعالــى أمرهم أن يعبدوه ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾؛ لأنه منح رحلتيهم في الشتاء والصيف الأمن، بفضل أنهم أهل الحرم الذين لم يكن يتعَّرض لهم أحد، سواء كان هذا الأمــن بفضل الحِبــال (العهــود والاتفاقيــات) التي عقدهــا أجداد الرســول ﷺ مع الملوك، أم بفضل تلك الحِبال أيضاً مع رؤســاء القبائل المحيطة بهم، ولا بُدَّ هنا من اســتدعاء الآية التي جاءت صريحة في هذا المعنى؛ معنى الأمن والتأمين ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: 67].

في هذه المعانــي جميعاً لم يخــرج الإيلاف عن أن يكون في ســياق الامتنان الإلٰهي على قريش، بما يستوجب أن يتوجَّهوا إليه بالعبادة، وينبذوا الأصنام والأوثان، ويؤمنوا بالرســول الذي بعثه لهم، وهو ما أشارت إليه تتمة الآية التي استشهدنا بها آنفاً: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت: 67].

تدل على هذا الســياقِ دلالةً مباشــرة الآيةُ الجامعة من الســورة التي جاءت نعتاً لـ ﴿ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾، وهي: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: 5]. إن الآية تعلِّل وتؤكد معاً ذاك الامتنان بالإيلاف، الذي كانت ثمرته أمريــن عظيمين: الغنــى أو الإغناء بعد الحاجــة، والأمان أو التأمين بعد الخوف.

كانت قريش تعاني الحاجة والفقر، كما كانت تعاني الخوف ممن حولها وما حولها، فأغناها اللّٰه بالرحلتين، وأمَّنها بإهــلاك الأحباش، وقد جاءت الإشارة إلى الرحلة التي ربطها القرآن بـ(الإيلاف) بين الإهلاك والمَنِّ!

يمكن لنا أن ننزل متعلَّق (الإيلاف) (للرحلتين) على الاقتصاد أو الحراك الاقتصادي، كما يمكن أن ننـــزل الإطعام الذي عَبَّرنا عنـــه آنفاً (الغنى أو الإغناء) بالأمن الغذائي، الذي تحلم به وتســـعى إليه الشـــعوب اليوم. أما ما عبّرنا عنه بـ(الأمن أو التأمين) فهو السلام أو الاستقرار، الذي تحلم به وتسعى إليه ـ أيضاً ـ الشعوب اليوم، وهو ما عاشته قريش في تلك الحقبة من الزمان.

إن الرؤية القرآنيـــة تنظر للإيلاف والائتلاف على أنـــه تقاربُ الناس وتآلف قلوبهم، وعلى أنه نعمةٌ من نِعَم اللّٰه على البشر، وعلى أنه مظهرٌ من مظاهر بقاء الإنسان على هذه الأرض، وعلى أنه ضمانة رئيسة لأمن الإنسان واستمراره وسعادته.

كانت قريش تعاني الحاجة والفقر، كما كانت تعاني الخوف ممن حولها وما حولها، فأغناها اللّٰه بالرحلتين، وأمَّنها بإهلاك الأحباش، وقد جاءت الإشارة إلى الرحلة التي ربطها القرآن بـ(الإيلاف) بين الإهلاك والمَنِّ!

2/2: تأليف القلوب

كان (الإيـــلاف) لقريش وهي على الشـــرك ولما تدخل الإيمان بعد، وكان ذلك من فضل اللّٰه تعالى الذي يستوجب الشكر العظيم.

ثم ابتعث اللّٰه رســـوله (محمداً ﷺ)، فعاد (الإيلاف) مـــرّة أُخـــرى، ليظهر بصـــورة لغوية جديدة، هي (التأليف)؛ لكنه هذه المرة للذين اتبعوا الرسول وآمنوا به.

1/2/2: تأليف قلوب المؤمنين

امتنَّ اللّٰه تعالى على أولئك الذين آمنوا بالرسول واتبعوه بأنه ألَّف بين قلوبهم ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ [آل عمران: 103].

ويلاحظ أن البيـــان القرآني قَابَلَ بيـــن العداوة وتأليـــف القلوب، وهو ما يُرجعنا إلى المعنى الذي أشرنا إليه في (الأسرار اللغوية) من أن التأليف يأتي بمعنى الحب، كما يلاحَظ أن (التأليف) يؤول إلى الأخوّة، وهي درجة

رفيعة من درجات الروابط الإنسانية. ثم إن ذلك كله يأتي في سياق نعمة الله، فقد تكرَّر لفظ (النعمة) مرتين: في صدر الآية: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وفي تضاعيفها: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

وأشار القرآن إلى ذلك في سياق المَنِّ، ولكن المَنَّ هذه المرة على الرسول نفسه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 62، 63].

ويلاحظ أن البيان القرآني هنا كرَّر (ألَّف) ثلاث مرات: مرتين أثبت فيهما التأليف مسنداً إليه سبحانه، ومرة نفاه، أو نفى إمكانه من قِبَل الرسول ﷺ، في إشارةٍ إلى عظيم هذه النعمة؛ نعمةِ تأليف القلوب وجمْعها. إنَّ هذا (التأليف) كان تأييداً ونصراً له ﷺ، ويمكن أن يكون تأييداً ونصراً للإنسان صاحب القضية اليوم.

2/2/2: تأليف حديثي الإيمان

وإذا كان الله تعالى قد ألَّف قلوب المؤمنين؛ فإنه أَمَر رسوله بأن يؤلف أو يتألَّف قلوب أولئك الذين دخلوا الإيمان حديثاً، ولما يتمكَّن الإيمان بعدُ في قلوبهم، فكأنهم ما زالوا موزعين بين أرض الإيمان وأرض الكفر، ويُخشى عليهم أن ينتقلوا إلى الأرض التي كانوا فيها، لكن التأليف ـ هنا ـ ما جاء في سياق المن، وإنما في سياق التقرير: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60].

إن التأليف مِنَّة من الله تعالى وتأييد ونصْرٌ، وهو في الوقت نفسه وسيلة يُتَوَصَّل بها إلى تثبيت الإيمان في القلوب.

3 ـ الأبعاد الحضارية

إذا كان الإيلاف والائتلاف مشحوناً بتلك الحمولة اللغوية والدينية الثرية؛ فإن حمولته الحضارية ليست أقل زخماً، ويكفي أن نشير إلى تلك

العلاقة الوثيقة بينه وبين الحضارة بمفهومها الحقيقي والشامل؛ الحقيقي لا المزيف، نعني المتصل بجوهر الإنسان بوصْفه المخلوق الذي كرّمه الله تكريماً، والشامل لا الجزئي، نعني الذي يُنظر إليه على أنه كائنٌ مركّبٌ من عدة عناصر، هي على سـويَّة واحدة من الأهمية، فهو جسـدٌ وروحٌ، ونفسٌ وعقلٌ، ولا يستقيم أمره إلا بوضع هذه العناصر جميعاً في الحسبان، يتحرك وهو على وعْيٍ بها، وبأنه في حركته ينبغي أن يتوافق مع مقتضياتها من دون تقصير، فضلاً عن الإهمال، ويُتعامل معه ـ كذلك ـ بالوعي نفسه، أيضاً من دون تقصير، فضلاً عن الإهمال.

إذا كان الله تعالى قد ألَّف قلوب المؤمنين؛ فإنه أَمَر رسوله بأن يؤلف أو يتألَّف قلوب أولئك الذين دخلوا الإيمان حديثاً، ولما يتمكَّن الإيمان بعدُ في قلوبهم، فكأنهم ما زالوا موزعين بين أرض الإيمان وأرض الكفر.

إن الائتلاف ـ ائتلاف الجماعة الإنسـانيّة ـ هو قرين الحضارة؛ بمعنى أنه لا تُتَصوَّر حضارة بالمفهوم المركب الذي أشـرنا إليه من غير أن يكون هنا ائتلاف بين صانعي الحضارة: ائتلاف بالمعاني اللغوية التي تبـدأ بالانضمام والتجمع والالتئام، مروراً بالوصل أو التواصل، والاستمالة (التحبب)، وما يندرج تحتها من مداراة ومقاربة، ثم التـلازم وما يشـير إليه من وحـدة مصير الإنسان بإطلاق، والتناصر (الاستجارة والإجارة) وما يلحق به من نفي الظلم، والأمان والعهد وما يحيلان عليه من ضرورة احترام المعاهـدات والمواثيق، وصولاً إلى الحبِّ بكل ما تحمله بنيته المفهومية من إيجابية وعطاء ونفْعٍ بعيداً عن المصالح.

وائتلاف ـ أيضاً ـ في الرؤية القرآنية التي تربطه بالقلوب، وتسـمو به لتجعل منه بقاء واسـتمراراً، ونعمة وأمناً واسـتقراراً، وتلـك هي الغايات الإنسانية العليا التي تحقق إعمار الكون الذي خلق الله الإنسان من أجله.

1/3: الائتلاف في الاختلاف

نعم الائتلاف في الاختلاف! قد تبدو هذه العبارةُ صادمةً بادي الرأي؛ لكنها ـ في الحقيقة ـ صادقةٌ صدقاً أكيداً، على الرغم من تناقُضها الظاهر.

ولنقل بحرْفية ومباشرة: ليس فيها تجاوُزٌ ولا مواربة حتى نزيل أثر الصدمة: إن الائتلاف إنما يتحقق في الوعي بالاختلاف، بمعنى أنَّ الأطراف التي ترغب أو تريد أن تأتلف يلزمها ـ أولاً ـ أن تعي أن الحديث عن الائتلاف إنما كان ـ أساساً ـ لوجود اختلاف، وأنه لولا وجود هذا الاختلاف لما كان هناك مسوِّغ أصلاً لإثارة قضية الائتلاف. هذا الوعي لا بُدَّ أن ينعكس على الفور انعكاساً يسلِّم فيه الناس المختلفون أن الاختلاف داخلٌ في النسيج العضوي للائتلاف وهذا ـ بدوره ـ يقتضي أن تقف الأطراف جميعاً من الاختلاف موقفاً إيجابيّاً. وإيجابيةُ الموقف لا تكون بمواجهته ـ نعني الاختلاف ـ أو التصادم معه، وإنما تكون بالتسليم له والرضا به والنظر إليه بوصفه أمراً طبيعيّاً في البشر، وليس بالإمكان القفز عليه ولا مصادمته، ولا تجاوزه، ولا القضاء عليه.

كنا نود أن نستشهد بالآية الكريمة ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: 118 ـ 119]، إلا أن كلام المفسرين فيها ينأى بنا عن الغرض؛ فلقد قالوا الكثير في المراد بـ(الأُمة الواحدة) وبـ(الضمير: الواو) في ﴿ وَلَا يَزَالُونَ ﴾ وبـ(الاختلاف) وبـ(المرحومين) وبالمشار إليه في ﴿ وَلِذَٰلِكَ ﴾ ويكفي في هذا السياق الإشارة إلى ما جاء في مفاتيح الغيب للفخر الرازي، والتحرير والتنوير لابن عاشور.

بَيْدَ أننا نريد أن نتوقف قليلاً عند أمرين: (الاختلاف) ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾، فنقول: إنه بغضِّ النظر عما قاله المفسرون؛ فإن الآية تقرِّر استمرار الاختلاف، وعندما يصدر هذا التقرير عن خالق الناس؛ فإن معنى ذلك أنه سُنَّة وجِبِلّة ليس بالإمكان الخلاص أو التخلُّص منها، ولذا فإن على الناس أن يتعاملوا مع هذا الاختلاف، على أنَّ وراءه حِكمةً إلٰهية.

الاختلاف الذي أشارت إليه الآية: اختلاف الأديان، أم اختلاف الرزق، أم اختلاف الألسنة، أم اختلاف الألوان، أم اختلاف الأحوال؟ ربما كان الاختلاف بإطلاق (اختلاف الأحوال) هو المراد، فالاختلاف كان، عرفناه ونُقل إلينا، وكائن نعيشه اليوم، وسيكون ويستمرُّ في المستقبل.

إن فهْم الاختلاف بهذا الشمول يؤدي إلى التكامل؛ ففي كل إنسان من الاختلاف ما يجعله إضافةً، في الوقت نفسه الذي يكون فيه بحاجة إلى أخيه فيما ينقصه. هذا الفهم يتوافق مع ما قيل من أن المراد بالظلم في الآية السابقة: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: 117]، أنه تعالى: لا يُهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم. ولهذا قال الفقهاء: إن حقوق الله مبناها على المسامحة، وحقوق العباد مبناها على التضييق»[16].

أما ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾؛ فإن الإشارة قد تكون للاختلاف المفهوم من ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾، وإذا كان؛ فإن المراد: ولثمرة الاختلاف؛ أي: لما سيؤول إليه حالهم في الآخرة كان خَلْقُهم. وربما كان للاختلاف نفسه؛ فقد خلق الله الناس ليختلفوا؛ أي «ليستعدّ كل منهم لشأنٍ وعمل، ويختار بطبعه أمراً وصنعة، ويستتبَّ بهم نظام العالم، ويستقيم أمر المعاش، فهم محاملُ لأمر الله، حمل عليهم حُمول الأسباب والأرزاق، وما يتعيش به الناس، ورتَّب بهم قوام الحياة الدنيا»[17]. هذا النص الأخير نصٌّ نفيس لجمال الدين القاسمي، خرج به من ضيق فُهوم بعض المفسرين من القدماء، وهو يؤكد الفهم الذي قرَّرناه آنفاً. ومن نفاذ هذا الفهم للقاسمي وتكامله أنه لم يُجرَح بـ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾.

لقد خلق الله الناس ليختلفوا؛ أي «ليستعدّ كل منهم لشأنٍ وعمل، ويختار بطبعه أمراً وصنعة، ويستتبَّ بهم نظام العالم، ويستقيم أمر المعاش، فهم محاملُ لأمر الله، حمل عليهم حُمول الأسباب والأرزاق، وما يتعيش به الناس، ورتَّب بهم قوام الحياة الدنيا».

فـ«الفئة المرحومة المؤمنة مظاهر لكماله، كما أن الخلْق بعامة هم

16 ـ ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، 1419هـ/1998م، 601/10. 601/10.

17 ـ محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ، 141/6.

محامل لأمر الله، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره»[18].

2/3: الدين أساس الائتلاف

على الرغم من أن بعض المفسرين قالوا: إن الاختلاف في ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ المراد به الاختلاف في الأديان؛ فإن فكرة الدين نفسها هي أساس الائتلاف الإنساني. لقد ناقش محمد عبد الله دراز مسألة النزعة الدينية في النفس البشرية، وخلص إلى أن هذه النزعة تقوم على الإيمان بالغيب الذي هو غريزة وجبلَّة، وأن هذه الغريزة ليست مبدأ الدين فحسب؛ وإنما هي مبدأ العلم أيضاً، وأن العقول الفسيحة الأفق تطلب دائماً تحت كل اختلاف ائتلافاً، ومن وراء كل كثرة وَحْدة[19].

إن الأمر ـ حقّاً ـ كما قال، فالإنسان ـ من حيث هو إنسانٌ ـ واحدٌ في نزوعه، والكونُ الذي يسكن فيه ويحيط به هو ـ أيضاً ـ واحد، وإن اختلف وتباين، فخلف الاختلاف والتباين الظاهرين وحدةُ الخالق.

إذا سلَّمنا بهذا فإن الإنسان ذا العقل الفسيح الأفق ـ على حدِّ تعبير دراز ـ ينبغي أن يسعى ـ على وَفْق غريزته وجِبِلته ـ إلى الائتلاف مع أخيه الإنسان من جهة، ومع الكون من جهة أخرى، وصولاً إلى الغيب الذي هو الخالق، الذي خلق الإنسان وأراده مؤتلفاً ومتآلفاً في عمارة الكون. فإذا ما دفعته نزواته، وألحَّ عليه نَزَقُه وشططه ليندفع إلى الفساد والإفساد؛ كان عليه ألا يستجيب، وأن تظلّ فكرة الإنسان المؤتلِف والكون المؤتلف عاصمةً له من السقوط في مهاوي الصراع، وما يؤدي إليه من ظُلْمٍ وتخريب، وافتئات على الائتلاف الذي هو سرُّ وجوده وحياته.

إذا كانت النزعة الدينية موحِّدة بوصفها غريزة إنسانية جامعة؛ فإن من وظيفة الدين ـ كما أراد الله ـ في المجتمعات البشرية أن يكون حافزاً

18 ـ المصدر السابق، 141/6.

19 ـ محمد عبد الله دراز، الدين: بحوث ممهَّدة لدراسة تاريخ الأديان، دار العلم، دمشق، ص96، 97.

على التعاون الإنساني وضابطاً له، والحقّ أنه على الرغم من مروق الإنسان في كثير من الأحيان ومجافاته للدين؛ فإنه ليس شيءٌ ما له ما للدين من قدرة على التأثير على الإنسان ـ فرداً وجماعة ـ في التوجه نحو كلِّ قِيمِ الخير والجمال، حتى إنه يمكن عدُّه «خيْر ضمانٍ لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنَّصفة، وكان لذلك ضرورة اجتماعية، كما هو فطرة إنسانية»[20].

إن الائتلاف لا يقوم من غير دين؛ فالأديان لها وظيفتان: وظيفة التأليف بين الجماعات الإنسانية ـ بتهذيب سلوكها وتصحيح معاملاتها وتطبيق قواعد العدل بينها، ومقاومة الفوضى والفساد لديها ـ ووظيفة التأليف بين قلوب أتباعها وجمْعهم على التعاضد والتراحم[21].

إذا كانت النزعة الدينية موحِّدة بوصفها غريزة إنسانية جامعة؛ فإن من وظيفة الدين ـ كما أراد الله ـ في المجتمعات البشرية أن يكون حافزاً على التعاون الإنساني وضابطاً له.

هذا هو الأصل في الدين، أما ما هو واقع؛ فإنه مخالفة و(مروق) من الإنسان على روح الدين وثوابته ووظائفه وغاياته.

3/3: الثقافة قبل الفِقه

لعل الثقافة هي أهم أبعاد الائتلاف، أعني أن علينا ـ ونحن نسعى إلى الائتلاف ـ أن نركن إلى الثقافة، والثقافة في جوهرها طيِّعة، منفتحة، تقبل، وتحاور، وتأخذ وتعطي، بعكس الفقه الذي ينهض على الحِلِّ والحرمة، من دون أن يعني ذلك الانتقاص منه، أو التقليل من وظيفته في خدمة الإنسان. إن الثقافة برحابتها تستطيع أن تَسَع الاختلاف، وتبحث عما وراءه من ائتلاف. أمَّا الفقه فإنه بطبيعته يسعى إلى التنظيم والضبط، ولذلك فهو يخاطب الجماعة المتجانسة في رؤيتها للحياة، وفي عقيدتها ودينها.

20 ـ محمد عبد الله دراز، الدين: بحوث ممهَّدة...، ص100.

21 ـ المرجع السابق، ص101.

إن لكل جماعة أن ترى في رؤيتها وعقيدتها الحــقَّ والخير والصواب؛ لكن ليس من حقّها أن تُلزم غيرها بتلك الرؤية والعقيدة.

ليست الرؤى والعقائد بالضرورة متقابلات أو متناقضات، نعم فيها هذا التقابل أو التناقض؛ فالإســلام يرفض فكرة التجســيد والثالوث؛ لكنه في الوقت نفسه يؤمن بنبي المسيحية، ويرى أن ما نزل على عيسى هو من عند الله. والغرب اليوم لا يؤمن أصلاً بالإســلام ولا بمحمــد ﷺ، ويلصق بهذا الديــن ونبيِّه نعوتــاً كثيرة، هي فــي الحقيقــة خارجة من جَعْبة ترسُّــبات تاريخية، رسمت صورة مشوَّهة يستدعيها العقل الغربي باستمرار.

يقتضي الائتلاف أن يُفَضَّ هذا الاشتباك بإزاحة المسائل العقدية التي لا تلتقي، وهي متروكة لاختيار الإنسان وعقله، وأن يبتعد كلُّ طرف عن معتقد الآخر ولا يتصادم معه، وأن يبحث الجميع عَمَّا وراء الاختلاف من ائتلاف، ولنا ـ نَحنُ العرب والمسلمين ـ في تراثنا هادٍ ومرشدٌ.

إنما قلنا: لنا في تراثنا هاد ومرشــد، لأن لدينا ـ حقاً ـ شواهد كثيرة جدّاً، سنكتفي بثلاثة منها:

الشاهد الأول عبد اللطيف البغــدادي (ت: 629هـ) الذي كان له موقف إيجابي من الآثار التــي رآها في مصــر، فقد رأى فيها ـ علــى الرغم من الموقف الفقهي منها ـ منها ـ أربع مصالح:

تاريخاً يجعلنا على تواصل مع الماضي.

وشهادة للكتب المنزَّلة، ومنها القرآن العظيم الذي ذكرها وذكر أهلها.

وتذكيراً بالصبر وتنبيهاً على المآل.

ودلالة على علوم السالفين وسيرهم وفكرهم[22].

والشاهد الثاني أبو الريحان البيروني (ت: 440هـ)، الذي لم يتحرج من أن يتعرَّض في كتابه العظيم (تحقيق ما للهند من مقولة معقولة مقبولة

22 ـ فيصل الحفيان، العيش والتعايش في التراث الفقهي والثقافي، بحث غير منشور.

في العقل أو مرذولة) لعقائد الهندوس ونحلهم وأعيادهم وشعائرهم، من دون أن يغمزها أو ينتقص منها، وذلك على الرغم من أنهم خصوم على ما جرى على لسانه هو نفسه، فما كان القصد ـ كما قال ـ أن يكون كتابه «كتاب حِجاج وجدل، حتى استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحقِّ»[23].

أما الشاهد الثالث فهو شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: 728هـ) ـ وهو من هو ـ فقد كان له موقف مباشر من الآخر، تمثَّل في أنه لم يَرضَ بقاء (أهل ذمة المسلمين) في الأسر، وكان ردُّه على التتار: «إننا لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من المسلمين وغيرهم، لأنهم أهل ذِمَّتنا، ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمَّة ولا من أهل المِلَّة»[24].

يقتضي الائتلاف أن يُفَضَّ هذا الاشتباك بإزاحة المسائل العقدية التي لا تلتقي، وهي متروكة لاختيار الإنسان وعقله، وأن يبتعد كلُّ طرف عن معتقد الآخر ولا يتصادم معه، وأن يبحث الجميع عَمَّا وراء الاختلاف من ائتلاف.

وإذا كان الشاهدان الأولان ليسا محلَّ إجماع من جهةٍ أنهما ليسا رجال دين ـ بالمصطلح المعاصر ـ فإن ابن تيمية هو شيخ الإسلام، وهو ـ كما يرى كثيرون ـ شديدٌ في التعامل مع الفرق والمِلل والنِحل الأخرى؛ لكنَّ موقفه آنف الذكر موقفٌ ثقافي، لا موقف فقهي، ولعله لذلك استخدم «لا نرضى» بدلاً من «لا يجوز».

تعلو الثقافة من زاوية الائتلاف على الفِقه، ولا تنظر إلى الأمور نظراً ظاهراً يقوم على المحاكمة، ويندفع إلى مضائق الحل والحرمة، بل تغوص لتصل إلى المستور، دون أن يعني ذلك أنها تنخلع من مبادئها أو تخالف ما تؤمن به[25].

23 ـ المرجع السابق نفسه.

24 ـ المرجع السابق نفسه.

25 ـ المرجع السابق نفسه.

خاتمة: حلم الائتلاف

يتجاوز الحديثُ عن الإيلاف والائتلاف والمؤتلَـف كثيراً الحديثَ عن التسـامح والتفاهم والحوار؛ ذلك أن هذه الأخيرة يمكن النظر إليها على أنها أدوات أو آليات؟

من هنا يثور السؤال الاسـتنكاري والتعجبي: كيف يسوغ لنا أن نتحدث عن الائتلاف، ونحـن لم نتفق علـى تلـك الأدوات أو الآليات وشـروطها وضوابطها ومحاذيرها، بل إننا لم نتفق عليها بوصفها مبادئ؟!

لا شـكَّ أن الائتلاف قيمة (طوباوية) قـد تكون متعـذِّرة، لكننا ـ على الرغم من ذلك ـ علينا أن نسـعى أو نحاول السـعي إليها. إنه (الائتلاف) أشبه بغاية بعيدة، وإذا ما نظرنا إليها على أنها جزء من سُلَّم القِيم؛ فإنها الدرجة العالية الرفيعة التي قد لا نستطيع الوصول إليها، لكن ذلك ـ مرّةً أخرى ـ لا يحول أو لا ينبغي أن يحول دون أن نبذل قصارى الجهد في سبيل بلوغها؛ لأنَّ مجرد السعي نحو البلوغ ربما يزيل الكثير من الجدران العالية والسميكة التي تهدم الجسور بين الإنسان وأخيه الإنسان، فكأن الائتلاف أو الإيمان به في حّـدِّ ذاته. هو نوعٌ مـن الوقود أو الحافز، الذي يسـتفزُّ أو يستنفر الهمة؛ لكي نرنو إلى ذلك الحلم رجاء التحقق بالجهد والعمل من أجل السلام.